
ملحق ٢
أعده للنشر: محمد الشندويلى
التفسير الوسيط للقرآن الكريم
تقدم اللواء الإسلامى تفسيراً عصرياً وهو «التفسير الوسيط» فقد نال عند العلماء بأنه أعظم تفسيراً للقرآن الكريم - فيه كل المواصفات للتفسير وله مكانة مهمة فى مسار التجديد الدينى.. وبعيد كل البعد فى تفاسير شيوخ السلفية ولا فى ظلال القرآن ولا تفاسير الإخوان - ولا التفاسير الأخرى التى سيطرت عليها العواطف..
.. وقد كلفنى الأستاذ أحمد عطية رئيس التحرير - لما علم أن اللواء الإسلامى عرضت هذا التفسير عرضاً سريعاً بعد طبعه فى دار نهضة مصر.. منذ عشرين عاماً تقريباً - للعلامة الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر السابق رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.
.. نبدأ من هذا العدد بنشر هذا التفسير.. من بداية سورة الفاتحة حتى سورة الناس وللعلم أن هذا التفسير «الوسيط» يقع فى خمسة عشرة مجلداً..
وهذا التفسير يعتبر الأول على الساحة الإسلامية الآن لأنه تفسير عصرى متمشياً مع روح العصر.
ويقول الإمام الأكبر شيخ الأزهر السابق رحمه الله عن تفسيره إنى توخيت فيما كتبت إبراز ما اشتمل عليه القرآن الكريم من هوايات جامعة، وأحكام سامية وتشريعات جليلة، وآداب فاضلة، وعظات بالغة وأخبار صادقة - وتوجيهات نافعة، وأساليب بليغة، وألفاظ فصيحة.
د.سيد طنطاوى

وضوحه، وأبعد عن التشكيك فى إكرام الله لنبيه موسى - عليه السلام - إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين لأمكن أن يقولوا: إن تفجير الماء كان لمعنى خاص بالحجر لا لكرامة موسى عند ربه - تعالى -.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا﴾ كسابقتها للعطف على محذوف تقديره: فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح المعنى.

وكانت العيون اثنتى عشرة عينًا؛ لأن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر سبطًا، والاسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب. وهم ذرية أبناء يعقوب - عليه السلام - الاثنى عشر، ففى انفجار الماء من اثنتى عشرة عينًا إكمال للنعمة عليهم، حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر:

وقال - سبحانه -: ﴿فانفجرت﴾. وقال فى سورة الأعراف ﴿فانبجست﴾ والانبجاس خروج الماء بقلة. والانفجار خروجه بكثرة، ولا تنافى بينهما فى الواقع؛ لأنه انبجس أولا. ثم انفجر ثانيًا، وكذا العيون يظهر الماء منها قليلا ثم يكثر لدوام خروجه.

وقوله تعالى: ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتى عشرة عينًا أى: قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه، فلا يتعداه إلى غيره، وفى ذلك ما فيه من استقرار أمورهم، واطمئنان نفوسهم، وعدم تعدى بعضهم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ مقول لقول محذوف تقديره: وقلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله.

وقد جمع - سبحانه - بين الأكل والشرب - وإن كان الحديث عن الشراب - لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى، وقد قيل هنالك: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فلما أتبع ذلك بنعمة تفجير الماء لهم اجتمعت المنتان

وقوله تعالى: ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال النعمة فى غير ما وضعت له، بعد أن أذن لهم فى التمتع بالطيبات، لأن النعمة عند ما تكثر قد تنسى العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة، ويعيث فى الأرض فسادًا. قال تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾.

والمعنى: ولا تسعوا فى الأرض مفسدين، وتقابلوا النعم بالعصيان فتسلب عنكم. قال ابن جرير - رحمه الله -: (وأصل العثا شدة الإفساد بل هو أشد الإفساد، يقال منه:

عثى فلان فى الأرض: إذا تجاوز الحد فى الإفساد إلى غايته، يعثى، عثًا مقصورًا، ويقال للجماعة يعثون..)[١].

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة، ونصحتهم بأن يعملوا على شكرها: وحذرتهم عاقبة الإفساد فى الأرض وجحودهم النعمة واستبدالهم الذى هو أدنى بالذي هو خير:

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من جحود النعمة واستخفافهم بها وإيثارهم - بسوء اختيارهم - ما هو أدنى على ما هو خير، فقال تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

الصبر: حبس النفس على الشىء، بمعنى إلزامها إياه، ومنه الصبر على الطاعات، أو يطلق على حبسها بمعنى كفها. ومنه الصبر عن المعاصى. والطعام: مارزقوه فى التيه من المن والسلوى: والبقل: ما تنبته الأرض من الخضر مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما. والفوم: قيل هو الثوم، وقيل هو الحنطة. والقثاء: نوع من المأكولات أكبر حجمًا من (الخيار).

قال ابن جرير: (وكان سبب مسألتهم موسى - عليه السلام - ذلك فيما بلغنا عن قتادة أنه قال: كان القوم فى البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى: فملوا ذلك،

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة الحلبى.

وذكروا عيشًا كان لهم بمصر، فسألوه موسى، فقال الله تعالى: ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾[١].

ثم ساق ابن جرير رواية، فيها تصريح بأن سؤالهم لم يكن فى البرية بل كان فى التيه فقال: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب قال: أنبأنا ابن زيد قال:

«كان طعام بنى إسرائيل فى التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان شرابهم عسلا ينزل لهم من السماء يقال له المن، وطعامهم طير يقال له السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكونوا يعرفون خبزًا ولا غيره، فقالوا يا موسى: ﴿إنا لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها﴾ فقرأ حتى بلغ قوله تعالى ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾[٢].

وقد جرى أبو حيان وصاحب الكشاف - فى تفسيريهما - على أن سؤالهم لمرسى - عليه السلام كان فى التيه.

قال أبو حيان عند تفسير قوله تعالى ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾: «لما سئموا من الإقامة فى التيه. والمواظبة على مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التى ألفوها، وعن العوائد التى عهدوها، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك، وتشوقهم إلى ما كانوا يألفون، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم»[٣].

وقال صاحب الكشاف: «كانوا أهل فلاحة فنزعوا إلى عكرهم[٤] فأجموا - أى ملوا وكرهوا - ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم عدم البقاء ﴿على طعام واحد﴾ أرادوا ما رزقوه فى التيه من المن والسلوى»[٥].

ومعنى الآية الكريمة إجمالا: واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عَليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم، وفساد أذواقهم، وإعناتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - حيث قالوا له ببطر وسوء أدب: لن نصبر على طعام المن والسلوى فى كل وقت، فسل ربك أن يخرج لنا مما تنبته الأرض من خضرها وفاكهتها وحنطتها وعدسها وبصلها، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى، فوبخهم نبيهم موسى - عليه السلام - بقوله: أتختارون الذى هو أقل فائدة وأدنى

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩.
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩.
(٣) تفسير ابن حيان جـ ١ ص ٣٣١.
(٤) فنزعوا إلى عكرهم: أى حنوا إلى أصلهم وعادتهم.
(٥) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٧١.

لذة، وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون لذة وفائدة؟ انزلوا إلى مصر من الأمصار فإنكم تجدون به ما طلبتموه من البقول وأشباهها.

وأحاطت ببنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وحق عليهم غضب الله.

ثم بين الله - تعالى - السبب فى جحودهم للنعم وفى أنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة وأنزل عليهم غضبه بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ إلخ أى: إن الكفر بآيات الله قد تأصل فيهم، وقتل أنبيائهم بغير الحق قد تكرر منهم حتى صار كالطبيعة الثانية والسجية الثابتة، فليس غريبًا على هؤلاء أن يقولوا لن نصبر على المن والسلوى وأن ينزل بهم غضب الله ونقمته من أجل جحودهم وكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ تذكير لهم برغبة من رغباتهم الناشئة عن ذوق سقيم. لا يقدر النعمة قدرها، وفيه انتقال من تعداد النعم عليهم إلى بيان موقفهم الجحودى منها، وانسياقهم وراء شهواتهم وأهوائهم وحماقاتهم، وفيه إشعار بسوء أدبهم فى مخاطبتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - إذ عبروا عن عدم رغبتهم فى تناول المن والسلوى بحرف ﴿لن﴾ المفيد تأكيد النفى فقالوا ﴿لن نصبر﴾.. إلخ فكأنهم يقولون له مهددين، ليلجئوه إلى دعاء ربه سريعًا: إننا ابتداء من هذا الوقت الذى نخاطبك فيه إلى أن نموت، لن نحبس أنفسنا عن كراهية على تناول طعام واحد، لأننا قد سئمناه ومللناه، ولن نعود إليه: فالتعبير «بلن» يشعر بشدة ضجرهم، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم منتهاها.

قال الحسن البصرى - رضى الله عنه -: «بطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وثوم»[١].

ووصفوه بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر فى كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات، والعرب تقول لمن يفعل على مائدته فى كل يوم من الطعام أنواعا لا تتغير، إنه يأكل من طعام واحد.

وسألوا موسى - عليه السلام - أن يدعو لهم، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم، وكذلك دعاء الصالحين، حيث يصدر من قلوب عامرة بتقوى الله وجلاله، فيلاقى من الإجابة ما لا يلاقيه دعاء نفوس تستهويها الشهوات، وتستولى عليها السيئات.

وقولهم: ﴿فادع لنا ربك﴾ ولم يقولوا ربنا، لعدم رسوخ الإيمان فى قلوبهم، ولأنه سبحانه- قد اختصه بما لم يعط مثله من مناجاته وتكليمه وإيتائه التوراة.

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠١.

وقولهم : ﴿يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ هو مضمون ما طلبوه من موسى - عليه السلام؛ وهو فى معنى مقول قول محذوف والتقدير : أى قل لربك يخرج لنا.

وجاء التعبير بالفعل ﴿يخرج﴾ مجزومًا - مع أن مقتضى الظاهر أن يقال : «أن يخرج - للإيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه، حتى لكأن إخراج ما تنبت الأرض متوقف على مجرد دعاء موسى ربه، وأنه لو لم يدع لهم، لكان شحيحًا عليهم بما فيه نفعهم[(١)].

والجملة الكريمة : ﴿أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير﴾ من مقول موسى - عليه السلام - لهم، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم، وضعف عقولهم. لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه، على ما هو خير منه وهو المن والسلوى.

قال ابن جرير عند تفسيره للآية الكريمة : «أى قال لهم موسى : أتاخذون الذى هو أخس خطرًا وقيمة وقدرًا من العيش، بدلا بالذى هو خير منه خطرًا وقيمة وقدرًا، وذلك كان استبدالهم، وأصل الاستبدال : هو ترك شىء لآخر غيره مكان المتروك، ومعنى قوله : ﴿أدنى﴾ أخس وآضع وأصغر قدرًا وخطرًا، وأصله من قولهم : هذا رجل دنى بين الدناءة، وإنه ليدنى فى الأمور - بغير همز - إذا كان يتتبع خسيسها. ثم قال : ولاشك أن من استبدل بالمن والسلوى : البقول والقثاء والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه»[(٢)].

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى توبيخهم السابق على بطرهم وجحودهم توبيخًا آخر فقال لهم : ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أى إذا كان هذا هو مرغوبكم، فاتركوا هذا المكان، وانزلوا إلى مصر من الأمصار، لكى تجدوا ما سألتمونى إياه من البقل والثوم وأشباههما، لأن ما اخترتموه لا يوجد فى المكان الذى حللتم به، وإنما يوجد فى الأمصار والقرى.

وقوله تعالى : ﴿مصرًا﴾.

قال ابن كثير : «هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف»[(٣)].

وقال ابن جرير : «فأما القراءة فإنها بالألف والتنوين ﴿اهبطوا مصرًا﴾ وهى القراءة التى

(١) تفسير «التحرير والتنوير» جـ١ ص ٥٠٠ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور طبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٦٤.
(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣١٢.
(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٠١.

لا يجوز عندى غيرها، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك..» اهـ[(١)].

وقال أبو حيان فى البحر : «وقرأ الحسن وطلحةوالأعمش وأبان ابن تغلب (مصر) بغير تنوين، وقد وردت كذلك فى مصحف أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود، وبعض مصاحف عثمان - رضى الله عنه» اهـ[(٢)].

والمعنى على القراءة الأولى : اهبطوا مصرا من الأمصار لأنكم فى البدو، والذى طلبتم لا يكون فى البوادى والفيافى وإنما يكون فى القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش.

والمعنى على القراءة الثانية : اتركوا المكان الذى أنتم فيه، واهبطوا مصر التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونه، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية، ولا ترتاحون للفضائل النفسية، بل شأنكم - دائما - أن تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

ومن حجة الذين قالوا إن الله أراد بالمصر فى الآية الكريمة، مصر فرعون، قوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾[(٣)].

وقوله تعالى فى سورة الدخان : ﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين﴾[(٤)].

قالوا : فأخبر الله - تعالى - أنه قد ورثهم ذلك، وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها، ثم لا ينتفعون بها، ولا يكونون منتفعين إلا بمصير بعضهم إليها

قال ابن جرير : «ومن حجة من قال إن الله - تعالى - إنما عنى بقوله : ﴿اهبطوا مصرا﴾ أى : مصرا من الأمصار دون مصر فرعون بعينها، أن الله - تعالى - جعل أرض الشام لبنى إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنما ابتلاهم بالتيه. بامتناعهم عن موسى فى حرب الجبابرة، إذ قال لهم ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾.. إلى قوله تعالى : ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣١٥.
(٢) تفسير أبى حيان جـ١ ص ٢٣٣.
(٣) الأيات ٥٧ - ٥٩.
(٤) الأيات من ٢٥ - ٢٨.

قاعدون﴾. فحرم الله - تعالى - على قائل ذلك - فيما ذكر لنا - دخولها حتى هلكوا فى التيه وابتلاهم بالتيهان فى الأرض أربعين سنة. ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع «يوشع بن نون» بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا أن الله - تعالى - قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها، فيجوز لنا أن نقرأ ﴿اهبطوا مصر﴾ ونتأوله أنه ردهم إليها. قالوا : فإن احتج محتج بقوله تعالى : ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾؟ قيل لهم : فإن الله - تعالى - إنما أورثهم ذلك فملكهم إياها. ولم يردهم إليها وجعل مساكنهم الشام» اهـ[(١)].

قال أبو حيان فى البحر : (ولم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين أنهم هبطوا من التيه إلى مصر) اهـ[(٢)].

ومع أن ابن جرير - رحمه الله - قد رد على من قال، إن المراد بالمصر مصر فرعون : استنادًا إلى قراءة غير الجمهور، إلا أنه لم يرجح أحد الرأيين فقد قال : (والذى نقول به فى ذلك، أنه لا دلالة فى كتاب الله - تعالى - على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع مجيئه العذر، وأهل التأويل متنازعون تأويله، فأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب أن يقال : إن موسى سأل ربه أن يعطى قومه ما سألوه من نبات الأرض على مابينه الله - تعالى - فى كتابه وهم فى الأرض تائهون فاستجاب الله لموسى دعاءه وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قرارًا من الأرض التى تنبت ما سأل لهم من ذلك، إذا صاروا إليه، وجائز أن يكون ذلك القرار مصر، وجائز أن يكون الشام...»[(٣)].

ومن هذا النص الذى نقلناه عن ابن جرير، نرى أنه لم يقطع برأى فى المكان الذى أمر بنو اسرائيل بالهبوط فيه وأنه يرى أن الله - تعالى - قد استجاب لموسى - عليه السلام - دعاءه، وأن موسى وقومه قد هبطوا - فعلا - إلى قرار من الأرض التى تنبت البقول وأشباهها.

وقد عارض الإمام ابنُ كثير فى تفسيره رأىَ ابن جرير فقال :

وهذا الذى قاله - أى ابنُ جرير - فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار، كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك، لأن موسى - عليه السلام - يقول لهم : هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوى مع دناءته

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣١٤.
(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ١ ص ٢٣٤.
(٣) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣١٣.

وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه، ولهذا قال : ﴿أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أى ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم[(١)].

وبذلك يظهر لنا أن ابن كثير - رحمه الله - يرى أن المراد بالمصر مكان غير معين وأن موسى - عليه السلام - لم يسأل ربه إجابة طلبهم لأنهم كانوا متعنتين. بطرين، والله - تعالى - يكره من كان كذلك، وأن قول موسى - عليه السلام - لهم «اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم» من باب التوبيخ والتجهيل لهم، إذ ليس حينئذ بلد قريب يستطيعون الوصول إليه.

هذا، والذى نرجحه فى هذا المقام هو ما ذهب إليه الإمام ابن كثير لما يأتى :

أولا : أن القراءة بالتنوين متواترة، وابن جرير نفسه لم يجوز القراءة بغيرها، وهذه القراءة المتواترة، نص فى أن المراد من مصر، أى بلد كان، لا مصر فرعون، ثم إذا كان المراد به ذلك فليس لنا أن نقول إنه يصدق على مصر فرعون، وذلك لأن الأمصار التى تنبت ما طلبوا من لبقول والخضر أقرب إليهم من مصر، فليس من المعقول أن يؤمروا بالذهاب إلى مصر فرعون وهى بعيدة عن مكانهم بعدًا شاسعًا، ويتركوا الأمصار الأقرب إليهم وفيها ما يريدون.

ثانيًا : لم ينقل أحد من المؤرخين أنهم رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها كما قال أبو حيان وغيره، بل الثابت أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر، وأمروا بعد خروجهم بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين ولكنهم أبوا طاعة نبيهم - عليه السلام - فعذبوا بالتيه أربعين سنة تخلفهم عن قتال الجبارين، ولعصيانهم أمر نبيهم وماتوا جميعًا فى التيه، وبقى أبناؤهم فامتثلوا مر الله - تعالى - وهبطوا إلى الشام. وقاتلوا الجبارين ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن ون.

ثالثًا : ليس فى الآية ما يشعر بأن موسى - عليه السلام - طلب من ربه أن يجيبهم إلى غبتهم فكيف نقول بما لم يدل عليه القرآن الكريم ولو من طريق الإشارة؟

رابعًا : دخولهم فى التيه كان عقوبة لهم على نكوصهم عن قتال الجبارين، ليدخلوا الأرض لمقدسة التى كتبها الله لهم. فالتيه والحالة هذه كان بمثابة سجن لهم يعاقبون فيه، كما يشعر ذلك قوله تعالى : ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾ فكيف يخرج السجين ن سجنه تلبية لبعض رغباته المنكرة. وبناء على ذلك يكون الأمر فى قول موسى لهم : ﴿اهبطوا صرا فإن لكم ما سألتم﴾ للتهديد والتوبيخ والتجهيل.

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٠٢.

ثم بين - سبحانه - العقوبات التى حلت بهم جزاء ظلمهم وفجورهم فقال تعالى : ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ :

ضرب الذلة والمسكنة عليهم كناية عن لزومها لهم، وإحاطتها بهم، كما يحيط السرادق بمن بداخله.

قال صاحب الكشاف : (جعلت الذلة محيطة بهم، مشتملة عليهم، فهم فيها كمن يكون فى القبة من ضربت عليه، أو ألصقت به حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة)(1).

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم، بظاهر جسم آخر بشدة، يقال : ضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق.

والذلة : على وزن فعلة من قول القائل : ذل فلان يذل ذلة وذلة، والمراد بها الصغار والهوان والحقارة.

والمسكنة : مفعلة من السكون، ومنها أخذ لفظ المسكين، لأن الهم قد أثقله فجعله قليل الحركة والنهوض، لما به من الفاقة والفقر، والمراد بها فى الآية : الضعف النفسى، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص، فيجعله يحس بالهوان، مهما يكن لديه من أسباب القوة.

والفرق بينها وبين الذلة . أن الذلة هوان تجىء أسبابه من الخارج، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو.

أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونًا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستذل. ولقد عاش اليهود قرونا وأحقابًا مستعبدين لمختلف الأمم، فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفًا نفسيًا جعلهم لا يفرقون بين الحياة الذليلة والكريمة، بل إنهم ليفضلون الأولى على الثانية ما دامت تجلب لهم غرضا من أغراض الدنيا، ومهما كثر المال فى أيديهم، فإنهم لا يتحولون عن فقرهم النفسى وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير.

وقوله تعالى : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ بيان لسوء عاقبتهم فى الآخرة ومبالغة فى إهانتهم وتحقيرهم، فهم فى الدنيا أذلاء حقراء، وفى الآخرة سيرجعون بغضب من الله بسبب أفعالهم القبيحة.

(1) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧.

قال ابن جرير - رحمه الله - يعنى بقوله تعالى ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ : انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باءوا إلا موصولا إما بخير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوء بوأ وبواء، ومنه قوله تعالى : ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك﴾ يعنى تنصرف متحملهما، وترجع بهما قد صارا عليك دونى، فمعنى الكلام إذا. ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط(1).

وقال صاحب الكشاف : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ من قولك باء فلان بفلان، إذا كان حقيقًا بأن يقتل به لمساواته له ومكافأته، أى صاروا أحقاء بغضبه(2).

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بسبب ما أحاط بهم من الذلة والمسكنة واستحقاقهم غضب الله وسخطه، فقال تعالى : ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. والجملة الكريمة استئناف بيانى جواب عن سؤال تقديره : لم فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب، فعلنا بهم بسبب جحودهم لآيات الله، وبسبب قتلهم لأنبيائه، وخروجهم عن طاعته؛ ومجاوزتهم حدودهم والآيات تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله تعالى وربوبيته، وتطلق ويراد بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية، وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله - تعالى - وهى التى يسميها علماء التوحيد المعجزات، وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات، ومردوا على ذلك كما يفيده التعبير بالفعل المضارع ﴿يكفرون﴾.

وقوله تعالى : ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أى ويقتلون أنبياء الله الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، ولقد قتل اليهود - فيمن قتلوا من الأنبياء - زكريا وابنه يحى - عليهما السلام - لأنهما أبيا الانقياد وراء شهواتهم وأهوائهم.

وقال - سبحانه - ﴿بغير الحق﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبدًا، لإفادة أن قتلهم لم كان بغير وجه معتبر فى شريعتهم لأنها تحرمه، ﴿أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا﴾ فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم وتخليد مذمتهم، وتقبيح إجرامهم، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ فى الفهم، أو تأول فى الحكم، أو شبهة فى الأمر، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما ارتكبوا، وخالفوا شرع الله عن تعمد وإصرار.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟

(1) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣١٥. (2) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧.

قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهًا يستحقون به للقتل عندهم»(1).

وقال الإمام الرازى : «فإن قيل : قال هنا ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ وقال فى آل عمران ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ فما الفرق؟ قلت. إن الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذى يوجب القتل يتجلى فى حديث : «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : «كفر بعد إيمان، وزنًا بعد إحصان، وقتل نفس بغير حق» فالحق المذكور هنا بحرف التعريف إشارة إلى هذا وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم، أى لم يكن هناك أى حق يستندون إليه، لا هذا الذى يعرفه المسلمون ولا غيره البتة»(2).

ثم قال تعالى : ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾.

العصيان : الخروج عن طاعة الله . والاعتداء : تجاوز الحد الذى حده الله - تعالى - لعباده إلى غيره. وكل متجاوز حد شىء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه. وللمفسرين فى مرجع الإشارة «ذلك» رأيان :

أحدهما : أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، وعليه يكون المعنى :

إن هؤلاء اليهود قد مرنوا على عصيانهم لخالقهم، وتعديهم حدوده بجرأة وعدم مبالاة فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله - تعالى - وامتدت أيديهم الأثيمة إلى قتل الأنبياء بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة.

والجملة الكريمة على هذا الرأى تفيد أن التردى فى المعاصى وارتكاب المناهى، وتجاوز الحدود المشروعة، يؤدى إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها، ومن حقيرها إلى عظيمها، لأن هؤلاء اليهود لما استمرأوا المعاصى وداوموا على تعدى الحدود، هانت على نفوسهم الفضائل، وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا، فكذبوا بآيات الله تكذيبًا وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق.

والثانى : يرى أصحابه أن اسم الاشارة الثانى يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول، وتكون الحكمة فى تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه حرصًا على معرفته ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم، واستحقاقهم لغضب الله - تعالى -

(1) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢١٧.
(2) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٣٩٠.

كما بينا، والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما فى قوله تعالى : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

والمعنى أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة، وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا. وقتلهم أنبياءنا، وخروجهم عن طاعتنا وتعديهم لحدودنا.

وعلى هذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة العليا من حسن الترتيب، فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم بآياته، ثم ثنى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء، وتخطى الحدود، وعدم المبالاة بالعهود، وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم فى سوق الأحكام، مشفوعة بعللها وأسبابها.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بجحود النعم، وسوء الأدب وحمق التفكير، وهوان النفس، وبلادة الطبع، وبطر الحق، والبغى على أنفسهم وعلى غيرهم، وما وصفتهم به أيدته الأيام وصدقته الأحداث فى كل زمان ومكان.

وبعد أن بين القرآن الكريم ما حل باليهود من عقوبات بسبب جحودهم لنعم الله، وكفرهم بآياته - أردف بذلك ما وعد الله به المؤمنين من جزيل الثواب.

فقال - تعالى - :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾

ففى هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن أربع فرق من الناس :

أما الفرقة الأولى : فهى فرقة الذين آمنوا، والمراد بهم الذين آمنوا بالنبى ﷺ، وصدقوه. وابتدأ القرآن بهم للإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز برضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك، كما قال - تعالى - : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وأما الفرقة الثانية : فهى فرقة الذين هادوا، أى : صاروا يهودًا، يقال : هاد وتهود، أى دخل فى اليهودية، وسموا يهودًا نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - بقلب الذال دالا فى

التعريب – أو سموًا يهودا حين تابوا من عبادة العجل، من هاد يهود هودا بمعنى تاب. ومنه ﴿إنا هدنا إليك﴾ أى: تبنا.

والفرقة الثالثة: هى فرقة النصارى، جمع نصران بمعنى نصرانى، كندامى وندمان والياء فى نصرانى للمبالغة، وهم قوم عيسى – عليه السلام – قيل سموًا بذلك لأنهم كانوا أنصارًا له، وقيل إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة وهى القرية التى كان عيسى – عليه السلام – قد نزلها.

وأما الفرقة الرابعة: فهى فرقة الصابئين جمع صابىء، وهو الخارج من دين إلى دين، يقال: صبا الظلف والناب والنجم – كمنع وكرم – إذا طلع. والمراد بهم الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل، وهم قوم يعبدون الكواكب أو الملائكة، ويزعمون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم.

وذكر القرآن الصابئة فى هذا المقام وهم من أبعد الأمم ضلالا. لينبه على أن الإيمان الصحيح والعمل الصالح يرفعان صاحبهما إلى مرتقى الفلاح. حتى ولو سبق له أنه بلغ فى الكفر والفجور أقصى غاياته.

والإيمان المشار إليه فى قوله – تعالى –: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾. الخ، يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى بمعنى صدور الإيمان منهم على النحو الذى قرره الدين الحق، فمن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام، وكان ينتمى إلى دين صحيح فى أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقدم العمل الصالح على الوجه الذى يرشده إليه دينه، فله أجره على ذلك عند ربه.

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولكنهم لم يقبلوها؛ فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا بأنهم يؤمنون بغيرها، لأن الشريعة الإسلامية قد نسخت ما قبلها والرسول ﷺ يقول: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى».

ويفسرونه – أى الإيمان – بالنسبة للمؤمنين المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا..﴾ على أنه بمعنى الثبات والدوام والإذعان، وبذلك ينتظم عطف قوله – تعالى –: ﴿وعمل صالحًا﴾ على قوله ﴿آمن﴾ مع مشاركة هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق الثلاث فيما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من ثواب جزيل، وعاقبة حميدة.

وبعض العلماء يرى أن معنى ﴿من آمن﴾ أى: من أحدث من هذه الفرق إيمانًا بالنبى ﷺ وبما جاء من عند ربه، قالوا: لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام، وأما بيان من مضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملابسة له بالمقام، فضلا عن أن الصابئين ليس لهم دين تجوز رعايته فى وقت من الأوقات.

ثم بين – سبحانه – عاقبتهم فقال: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

الأجر: الجزاء على العمل، وسمى الله ما يعطيه للمؤمن العامل أجرًا على سبيل التفضل منه.

وقال: ﴿عند ربهم﴾ ليدل على عظم الثواب، لأن ما يكون عند الله من الجزاء على العمل لا يكون إلا عظيمًا، ولأن المجازى لهم هو ربهم المنعوت بصفات الكرم والرحمة وسعة العطاء.

والمعنى: إن هؤلاء الذين آمنوا بالله عن تصديق وإذعان، وقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم يوم لقائه، هؤلاء لهم أجرهم العظيم عند ربهم، ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون، ولا يفوتهم نعيم، فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون.

ثم واصل القرآن حديثه مع بنى إسرائيل، فذكرهم بنعمة شمول الله إياهم برحمته وفضله رغم توليهم عن طاعته ونقضهم لميثاقه فقال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قال ابن جرير: «وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد، ما حدثنى به يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال ابن زيد: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه بنى إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمره الذى أمركم به ونهيه الذى نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت، لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: «هذا كتابى فخذه» فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى: قال فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا جميعًا، قال: ثم أحياهم الله بعد موتهم فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا. قال: أى شىء أصابكم؟ قالوا: متنا جميعًا، ثم حيينا؛

قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا نعم، هذا الطور. قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم، قال: فأخذوا بالميثاق. قال: ولو كانوا أخذوه أول مرة لأخذوه بغير ميثاق»(1).

ومعنى الآيتين الكريمتين: واذكروا – يا بنى إسرائيل – لتعتبروا وتنتفعوا وقت أن أخذنا عليكم جميعًا العهد بأن تعبدوا الله وحده، وتتبعوا ما جاءكم به رسله، وتعملوا بما فى التوراة، واذكروا كذلك وقت أن رفعنا فوق أسلافكم الطور تهديدًا لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر الله، وليشهدوا آية من آيات الله الدالة على قدرته، وقلنا لكم جميعًا. خذوا ما آتيناكم فى كتابكم من تكاليف بجد وعزم واجتهاد، واذكروا ما فيه وتدبروه وسيروا على هديه لتتقوا الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، ولكن الذى حصل منكم جميعًا أنكم أعرضتم عن العمل بما أخذ عليكم، فتركتم تعاليم كتابكم وآذيتم أنبياءكم، ولولا أن الله – تعالى – رأف بكم، ووفقكم للتوبة، وعفا عن زلاتكم، لكنتم من الهالكين فى دنياكم وآخرتكم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أمثال النعم الواردة فى الآيات السالفة، لأن أخذ الميثاق عليهم ليعملوا بما فى التوراة من الأمور العائد عليهم نفعها.

وقوله تعالى: ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ أى: أعليناه، وجعلناه فوق رءوسكم كالمظلة.

والطور: اسم للجبل الذى ناجى عليه موسى ربه – تعالى – كان بنو إسرائيل بأسفله فرفع فوق رءوسهم.

وقوله تعالى: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ مقول لقول محذوف، دل عليه المعنى، والتقدير: وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة، أى: تمسكوا به، واعملوا بما فيه بجد ونشاط، وتقبلوه، واجتنبوا نواهيه، واعملوا بما جاء به بدون تردد.

والمراد «بما آتيناكم» التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى لتكون هدى ونورًا لهم. وقوله تعالى: ﴿واذكروا ما فيه﴾ أى احفظوه وتدبروه وتدارسوه، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، واعملوا بكل ما جاء فيه بلا تعطيل لشىء منه.

قال الإمام القرطبى: «وهذا هو المقصود من الكتب، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان – فحسب –، فقد روى النسائى عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ، قال: «إن من أشر الناس رجلا فاسقًا يقرأ القرآن، لا يرعوى إلى شىء منه»(2).

(1) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٢٤.
(2) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٤٧.

و «لعل» فى قوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ إما للتعليل، فيكون المعنى: خذوا الكتاب بجد وعزم، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة، لتتقوا الهلاك فى عاجلتكم وآجلتكم، وإما للترجى، وهو منصرف إلى المخاطبين، فيكون المعنى: خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه، وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين.

وقوله تعالى: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم، ونبذوه خلف ظهورهم.

والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ أخذ الميثاق عليهم، وقبول ما أوتوه من الكتاب، والمعنى: ثم أعرضتم وانصرفتم عن طاعتى بعد أخذ الميثاق عليكم، ومشاهدتكم للآيات التى تستكين لها القلوب؛ لأن قلوبكم كالحجارة أو أشد قسوة.

وقوله تعالى: ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ تصريح بما حباهم به – سبحانه – من رأفة بهم، وقبول لتوبتهم، وعفو عن خطيئاتهم، فكأنه – سبحانه – يقول لهم: إنكم بإعراضكم عن طاعتى، ونقضكم لعهدى، وإهمالكم العمل بكتابى، وعدم تأثركم بآياتى ونذرى، قد استحققتم غضبى وعذابى، ولكن حال دون حلولها بكم. فضلى الذى تداركتم ورحمتى التى وسعتكم، ولطفى وإمهالى لكم، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم، بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم

وبذلك تكون الآيتان قد ذكرتا بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقتهم، ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ.

ثم ذكرهم – سبحانه – بسوء عاقبة الذين اعتدوا منهم فى السبت، وحذرهم من أن ينهجوا نهجهم فقال – تعالى –:

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

الاعتداء: مجاوزة الحد، يقال: اعتدى فلان وتعدى إذا ظلم.

والسبت: المراد به اليوم المسمى بهذا الاسم، وأصل السبت – كما قال ابن جرير – الهدوء

و « لعل » فى قوله تعالى : ﴿لعلكم تتقون﴾ إما للتعليل، فيكون المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة، لتتقوا الهلاك فى عاجلتكم وآجلتكم، وإما للترجى، وهو منصرف إلى المخاطبين، فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه، وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين.

وقوله تعالى : ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم، ونبذوه خلف ظهورهم.

والمشار إليه بقوله تعالى : ﴿ذلك﴾ أخذ الميثاق عليهم، وقبول ما أوتوه من الكتاب، والمعنى : ثم أعرضتم وانصرفتم عن طاعتى بعد أخذ الميثاق عليكم، ومشاهدتكم للآيات التى تستكين لها القلوب؛ لأن قلوبكم كالحجارة أو أشد قسوة.

وقوله تعالى : ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ تصريح بما حباهم به - سبحانه - من رأفة بهم، وقبول لتوبتهم، وعفو عن خطيئاتهم، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إنكم بإعراضكم عن طاعتى، ونقضكم لعهدى، وإهمالكم العمل بكتابى، وعدم تأثركم بآياتى ونذرى، قد استحققتم غضبى وعذابى، ولكن حال دون حلولهما بكم. فضلى الذى تدارككم ورحمتى التى وسعتكم، ولطفى وإمهالى لكم، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم، بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم

وبذلك تكون الآيتان قد ذكرتا بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقتهم، ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ.

ثم ذكرهم - سبحانه - بسوء عاقبة الذين اعتدوا منهم فى السبت، وحذرهم من أن بنهجوا نهجهم فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (٦٥) فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)

الاعتداء : مجاوزة الحد، يقال : اعتدى فلان وتعدى إذا ظلم.

والسبت : المراد به اليوم المسمى بهذا الاسم، وأصل السبت - كما قال ابن جرير - الهدوء

والسكون فى راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم : مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته. كما قال - جل ثناؤه - ﴿وجعلنا نومكم سباتًا﴾ أى راحة لأبدانكم، وهو مصدر، من قول القائل سبَت فلان يَسبِت سبتًا[1].

وملخص قصة اعتداء بنى إسرائيل فى يوم السبت، أن الله - تعالى - أخذ عليهم عهدًا بأن يتفرغوا لعبادته فى ذلك اليوم، وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد - سبحانه - ان يختبر استعدادهم للوفاء بعهردهم، فابتلاهم بتكاثر الحيتان فى يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم قريبة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك يوم السبت حياضًا تنساب إليها المياه فى ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض فى يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت، وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهرى لأمر الله، ولكنه فى حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد فى يوم السبت، فلم يعبأ أكثرهم بذلك، بل نفذ تلك الحيلة، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم..

والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلا فى سورة الأعراف [2] كما جاءت الإشارة إليه فى سورتى النحل[3] والنساء[4].

ثم بين - سبحانه - العقوبة التى حلت بهم بسبب اعتدائهم فى يوم السبت، وتحايلهم على استحلال محارم الله فقال - تعالى - :

﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾.

أى : صاغرين مطرودين مبعدين عن الخير أذلاء.

والخسوء : الطرد والإبعاد. يقال : خسأت الكلب خسأ وخسوءًا - من باب منع - طردته وزجرته، وذلك إذا قلت له : اخسأ.

وجمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير.

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أى : إنهم مسخوا مسخًا نفسيًا فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها.

وتلك العقوبة كانت بسبب إمعانهم فى المعاصى، وتأبيهم عن قبول النصيحة، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان،

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٢٧.
(٢) الآيات من ١٦٣ - ١٦٦.
(٣) الآية ١٢٤.
(٤) الآية ١٥٤.

فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان.

والضمير فى قوله : ﴿فجعلناها﴾ يعود إلى العقوبة التى هى مسخهم قردة و « نكالا » أى عبرة تنكل المعتبر بها بحيث تمنعه وتردعه من ارتكاب الشر.

يقال : نكل به تنكيلا إذا صنع به صنعًا يردعه ويجعل غيره يخاف ويحذر. والاسم النكال وهو ما نكلت به غيرك، وأصله من النكل - بالكسر - وهو القيد الشديد وجمعه أنكال.

وقوله : «لما بين يديها وما خلفها. أى : للذين كانوا قبل هذه العقوبة وعاشوا حتى شاهدوها، وللذين أتوا بعدها وعرفوا عن يقين خبرها.

والمعنى : فجعلنا هذه العقوبة عبرة زاجرة لمن كان قبلها وعاش حتى رآها ولمن أتى بعدها وعلم يقينًا بحال العادين فى السبت الذين مسخوا بسبب عصيانهم تحذيرًا له من أن يعمل عملهم، فيمسخ كما مسخوا، ويحل به العذاب الذى حل بهم. كما جعلناها أيضًا ﴿موعظة للمتقين﴾ الذين يسمعون قصتها فهم الذين من شأنهم أن ينتفعوا بالعظات، ويعتبروا بالمثلات.

ثم ساق القرآن بعد ذلك قصة من قصص بنى إسرائيل تدل على تنطعهم فى الدين، ومحاولتهم تضييق ما وسعه الله عليهم، وتهربهم من الانصياع لكلمة الحق، وتشككهم فى صدق أنبيائهم، وتعنتهم فى السؤال. وهذه القصة هى قصة أمرهم على لسان نبيهم موسى - عليه السلام - بذبح بقرة. استمع إلى القرآن الكريم، وهو يحكى هذه القصة بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول.

وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا
هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٦٧) قَالُوا۟
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ (٦٩)

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟
ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)
فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

(٧٤)

روى المفسرون أنه كان فى بنى إسرائيل رجل غنى، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فألقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى - عليه السلام - فجحدوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقى، فدعا موسى ربه فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة...﴾[1].

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٩٧ بتصرف وتلخيص وهناك روايات أخرى فى شأن هذه القصة ذكرها ابن جرير وأبو حيان وغيرهما لم نذكرها لأنها لا تختلف عن النص الذى سقناه إلا فى التفاصيل.

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذى يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار، فقال تعالى:

﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزوًا، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتتعظوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيل ولم يعرف الجانى. فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمه الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقى، فقال لهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فدهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة ﴿أتتخذنا هزوًا﴾؟ أى أتجعلنا موضع سخريتك؟ ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به.

والذى عليه جمهور المفسرين أن أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم فى شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقى إذا ضرب القتيل ببعضها، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾.

وقد أمرهم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، وفى أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة، لا يصلح أن يكون معبودًا من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح.

وقولهم ﴿أتتخذنا هزوا﴾؟ يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم، وانتظروا النتيجة بعد ذلك. ولكنهم قوم لا يعقلون.

ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به، أجابهم موسى بقوله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾: أى ألتجىء إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل، وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالممازح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن فيه - أيضًا - ردًا لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى -.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة:

(وقد نبهت الآية الكريمة، على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب، ويقذف به فى عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها فى مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع)[1].

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافيًا لحملهم على أن يذبحوا أى بقرة تنفيذًا لأمر ربهم، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم، فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله: ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾؟

أى: قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها[2]. وسبب سؤالهم عن صفتها، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم، يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التى يكون لها أثر فى معرفة قاتل القتيل، لابد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها.

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا ﴿ادع لنا ربك﴾ فكأنما هو رب موسى وحده، لا ربهم كذلك، وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه ومع هذا فقد أجابهم إجابة المربى الحكيم للأتباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض[3] ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾.

أى: قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها: إنه - تعالى - يقول: إن البقرة التى آمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصف بينهما، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به.

(١) مجلة لواء الإسلام العدد السابع السنة الثانية ص٨.
(٢) (ما) هنا مراد بها السؤال عن الصفة كما يقول من يسمع الناس يتكلمون عن حاتم أو الأحنف وقد علم أنهما رجلان، ولم يعلم صفتيهما ما حاتم؟ أو ما الأحنف؟ فيقال: كريم أو حليم.
(٣) الفارض المسنة اسم للبقرة التى انقطعت ولادتها من الكبر، وسميت بذلك لأنها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها. والبكر هى الفتية مشتقة من البكرة - بالضم - وهى أول النهار، والمراد بها هنا التى لم تلد. قال ابن جرير (البكر من إناث البهائم وبنى آدم ما لم يفتحله الفحل) والعوان هى المتوسطة فى السن: وصح إضافة (بين) إلى اسم الإشارة (ذلك) لأنه أشير إلى الفارض والبكر. قال ابن جرير: (العوان النصف التى قد ولدت بطنًا من بطن.. وجمعها عون. يقال: امرأة عوان من نسوة عون، وحرب عوان إذا كانت حربًا قد قوتل فيها مرة بعد أخرى).

وقد أكد - سبحانه - جملة ﴿قال إنه يقول إنها بقرة﴾ تنزيلا لهم منزلة المنكرين لتعنتهم فى السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به.

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر: إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ﴿لا فارض ولا بكر﴾ للتعريض بغباوتهم، والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة، لذا لجأ فى جوابهم إلى تنكير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة.

وقوله تعالى: ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال. وما موصولة، والعائد محذوف بعد حذف جاره، على طريقة التوسع، أى: إذا كان الأمر كذلك، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقى بأيسر طريق، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم، ولا تكثروا من المراجعة، فإنها ليست فى مصلحتكم.

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعًا، واستقصاء فى السؤال، فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سنها، فقالوا كما حكى القرآن عنهم:

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين ما لونها. قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾.

والمعنى: قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنها: سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكى يسهل علينا الحصول عليها، فأجابهم بقوله: إنه - تعالى - يقول إن البقرة التى أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها، تعجب فى هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها...

قال ابن جرير: «والفقوع فى الصفرة نظير النصوع فى البياض، وهو شدته وصفاؤه»[1].

وقال صاحب الكشاف: «الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة، وأنصعه يقال فى التوكيد أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسود حالك،.. ثم قال فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأى فائدة فى ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهى الصفرة، فكأنه قيل: شديد صفرتها فهو من قولك: جد جده»[2].

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سنها ووصفها من حيث لونها، فهل أغنتهم هذه الأوصاف؟، كلا! ما أغنتهم. فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم فى غنى عنه فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا. وإنا

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٣٥.
(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢١٩.

إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول، تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لا شية فيها: قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾.

ومعنى الآيتين الكريمتين: قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها: سل من أجلنا ربك أن يزيدنا إيضاحًا لحال البقرة التى أمرنا بذبحها. حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها، ومنفذون لما تكلفنا به، فأجابهم موسى بقوله: «إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لاشية فيها» أى قال إنه - سبحانه - يقول: أنها بقرة سائمة ليست مذللة بالعمل فى الحراثة ولا فى السقى، وهى بعد ذلك سليمة من كل عيب، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها ومميزاتها قد اكتملت ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ الواضح، ولم يبق إشكال فى أمرها، وبحثوا عنها، وحصلوها ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ لكثرة أسئلتهم وترددهم.

فقوله - تعالى -: ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾ حكاية لسؤالهم الثالث الذى وجهوه إلى نبيهم - عليه السلام - ليزدادوا معرفة بحال البقرة وصفتها من حيث نفاستها، بعد أن عرفوا سنها ولونها.

فكأنهم يقولون له: إن فى أجوبتك السابقة عنها تقصيرًا يشق معه تمييزها، فسل من أجلنا ربك ليزيدنا بيانًا لحالها، وكأنما أحسوا بأنهم قد أثقلوا عليه وتجاوزوا الحدود المعقولة فى الطلب، فعللوا ذلك بقولهم.

﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أى: لا تتضايق من كثرة أسئلتنا، فإن لنا عذرنا فى هذا التكرار. لأن البقر الموصوف بالعوان وبالصفرة الفاقعة كثير، فاشتبه علينا أمر تلك البقرة التى تريدنا أن نذبحها.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «وإنما لم يعتذروا فى المرتين الأولين واعتذروا فى الثالثة، لأن للثلاثة فى التكرير وقعًا من النفس فى التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذا كثر فى أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة»[1]

وقولهم: ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ حض لنبيهم موسى - عليه السلام - على الدعاء، ووعد له بالطاعة والامتثال، ودفع للسآمة عن نفسه من كثرة أسئلتهم، وتبرير لمسلكهم فى كثرة المراجعة حتى يتفادوا غضبه، فكأنهم يقولون له:

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١ ص ٥٣٣.

اجتهد فى الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحًا، وكشفًا لحال تلك البقرة التى تريد منا أن نذبحها، وإنا - إن شاء الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدى إليها، ثم إلى القاتل الحقيقى، وبذلك ندرك الحكمة، التى من أجلها أمرتنا بذبحها.

قال ابن جرير : وأما قوله تعالى : ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التى أمرنا بذبحها. ومعنى اهتدائهم فى هذا الموضع تبينهم ذلك الذى لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر»[1].

وفى قوله تعالى : ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض، ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها﴾ إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا فى غنى عنها لو أطاعوا نبيهم من أول الأمر، ولكنهم للجاجتهم، وسوء اختيارهم، وبعد أفهامهم عن مقاصد الشريعة، ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، فأصبحوا مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة بأنها متوسطة السن، لونها أصفر فاقع، تبهج الناظرين إليها، وهى، بعد ذلك، سائمة نفيسة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع، سليمة من العيوب، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة.

وقوله تعالى : ﴿لا ذلول﴾[2] صفة لبقرة، يقال : بقرة ذلول، أى : ريضة زالت صعوبتها، وإثارة الأرض : تحريكها وقلبها بالحرث والزراعة والحرث : شقها لإلقاء البذور فيها.

والمراد : نفى التذليل ونفى إثارة الأرض وسقى الزرع عن البقرة المطلوبة.

أى : هى بقرة صعبة لم يذللها العمل فى حراثة الأرض، ولا فى سقى الزرع، فهى معفاة من العمل فى هذه الأشياء. و ﴿لا﴾ فى قوله تعالى : ﴿لا ذلول﴾ للنفى، وفى قوله تعالى : ﴿ولا تسقى الحرث﴾ مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى : لا ذلول تثير وتسقى، وأعيد فى قوله تعالى ﴿ولا تسقى الحرث﴾ مراعاة للاستعمال الفصيح.

وقوله - تعالى - : ﴿مسلمة لا شية فيها﴾ صفتان للبقرة، ومسلمة مفعلة من السلامة.

والشية : اللون المخالف لبقية لون الشىء، وأصله من وشى الشىء، وهو تحسين عيوبه التى تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته.

والمعنى : إن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة، وليس فيها لون يخالف لون جلدها من

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٥٨.
(٢) الذلول - بفتح الذال - فعول من ذل ذلا - بكسر الذال - فى المصدر بمعنى لأن وسهل، وأما الذل - بضم الذال - فهو ضد العز، وهما مصدران لفعل واحد خص فى الاستعمال أحد المصدرين بأحد المعنيين﴾.

بياض أو سواد أو غيرهما، بل هى صفراء كلها.

وأرادوا بالحق فى قوله تعالى : ﴿ قالوا الآن جئت بالحق﴾ الوصف الواضح الذى لا اشتباه فيه ولا احتمال، فكأنهم يقولون له : الآن - فقط - جئتنا بحقيقة وصف البقرة، فقد ميزتها عن جميع ما عداها، من جهة اللون وكونها من السوائم لا العوامل، وبذلك لم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا.

والفاء فى قوله تعالى ؛ ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ قد عطفت ما بعدها على محذوف يدل عليه المقام، والتقدير فظفروا بها فذبحوها، أى : فذبح قوم موسى البقرة التى وصفها الله - تعالى - لهم، بعد ما قاربوا أن يتركوا ذبحها، ويدعوا ما أمروا به، لتشككهم فى صحة ما يوجه إليهم من إرشادات ولكثرة مما طلتهم.

قال صاحب الكشاف : وقوله تعالى : ﴿وما كادوا يفعلون﴾ استثقال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط. وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهى سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل : ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل»[1].

ثم كشف الله - تعالى - بعد ذلك عن الغاية التى من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال تعالى : ﴿وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

المعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسًا، فاختلفتم وتنازعتم فى قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه، والله - عز وجل - مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل، فقد بين - سبحانه - الحق فى ذلك فقال على لسان رسوله موسى - عليه السلام - اضربوا القتيل بأى جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخبر عن قاتله، وبمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته، يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شىء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم.

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها فى الذكر ليعدد على بنى إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها، فتتقبلها بشغف واهتمام.

قال صاحب الكشاف. فإن قلت فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٣٠.

القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال : وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت : كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديدًا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعًا لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منها مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين.

فالأولى : لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك.

والثانية : للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت القصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله : ﴿اضربوه ببعضها﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ونيته، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة»[1].

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم فى قوله تعالى : ﴿وإذ قتلتم﴾ مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد.

وأسند القتل - أيضًا - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوى، لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل، وكثيرًا ما يستعمل القرآن الكريم هـذا الأسلوب للتنبيه عـلى أن الخلف قد سار على طريقة السلف فى الانحراف والضلال.

وقوله تعالى : ﴿فادارأتم فيها﴾ بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس التى ذكرنا قصتها ومعنى ادارأتم فيها : اختلفتم وتخاصمتم فى شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضا أى يدفعه ويزحمه، أى تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح، ليدفع الجناية عن نفسه ويتهم غيره.

وقوله تعالى : ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ معناه : والله - تعالى - مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتيل الذى قتلتموه، ثم تنازعتم فى شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقى بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ معترضة بين قوله تعالى ﴿فادارأتم﴾ وبين قوله تعالى : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾. وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقى سينكشف أمره لا محالة.

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٢٠.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : «وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه، ليس أول قتيل طل دمه فى الأمم - إكرامًا لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم فى قومه وهو بين أظهرهم، وبمرأى ومسمع منه، لاسيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة فى إظهار المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله - تعالى - هذا الدم ويبين سافكه - لضعف يقين القوم برسولهم موسى - عليه السلام - ولكان ذلك مما يزيد شكهم فى صدقه فينقلبوا كافرين، فكان إظهار القاتل الحقيقى إكرامًا من الله تعالى - لموسى، ورحمة بالقوم لئلا يضلوا»[1].

وقوله تعالى : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ إرشاد لهم إلى الوسيلة التى عن طريقها سيهتدون إلى القاتل الحقيقى، والضمير فى قوله ﴿اضربوه﴾ يعود على النفس، وتذكيره مراعى فيه معناها هو الشخص أو القتيل.

وضرب القتيل ببعضها - أيا كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله تعالى. وفيه تيسير عليهم. واسم الإشارة فى قوله تعالى : ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ مشار به إلى محذوف دل عليه سياق الكلام.

والتقدير : فقلنا لقوم موسى الذين تنازعوا فى شأن القتيل اضربوه ببعض البقرة ليحيا، فضربوه فأحياه الله، وأخبر القتيل عن قاتله، وكمثل إحيائه يحيى الله الموتى فى الآخرة للثواب والعقاب.

وبذلك تكون الآية ظاهرة فى أن الذى ضرب ببعض البقرة قد صار حيًا بعد موته.

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - : فإن قيل : وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟ قيل : ليحيا فينبىء نبى الله والذين اداريءوا فيه عن قاتله.

فإن قال : وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم بذلك؟ قيل : ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه، والمعنى : فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضربوه فحيى، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾[2].

والمقصود بالآيات فى قوله تعالى : ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ الدلائل الدالة على أن الله على كل شىء قدير والتى منها ما شاهدوه بأعينهم من ترتب الحياة على ضرب القتيل بعضوميت، وأخباره عن قاتله، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقى. وذلك لكى تستعملوا عقولكم فى الخير. وتوقنوا بأن من قدر على إحياء نفس، واحدة فهو قادر على إحياء الأنفس جميعا لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شىء.

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ٥٢٩. (٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠٩.